من مواد المعجم التاريخي:[1]
الجمع في طائفة من الكلم القديم

كثر الحديث عن «المعجم التاريخي» وربما وصل العرب هذا المصطلح الجديد مما عرف في الدراسات المعجمية الحديثة، أن هذه الدراسات مهما اكتسبت من «التغريب» لايمكن أن تستغني عن الأصول اللغوية، ذلك أن الجديد اللغوي لابد أن يحتفظ بشيء من علاقة عضوية بالأصول القديمة.

ولنا أن نسأل أنفسنا: ألنا من تراثنا «معجم تاريخي؟» وهل لنا أن نعد مثلاً «لسان العرب» ضرباً من هذا المعجم؟

والجواب عن السؤالين هو أننا لانملك هذا المعجم، وليس «لسان العرب» ولاغيره من المطولات هو هذا الذي نتساءل عنه.

إن «المعجم التاريخي» يجب أن يكون قائماً علي العناية بالأصول، ثم الفروع عن هذه الأصول، وهذا يعني أنه يسرد المسيرة التاريخية منذ نشأتها بل ولادتها إلي نهايتها، ولا أريد بـ«النهاية» الموت والفناء وإن يكن هذا من الأمور الحاصلة في جمهرة من الألفاظ التي عفا عليها الزمن، أو قل قد انتفت الحاجة إليها.

إن لكل كلمة من الكلمات في العربية، كما هي الحال في كل لغة «سيرة» وهذه السيرة تخضع لظروف عدة، وتكون حاجة من حاجات المعربين.

ومن هنا كانت الكلمة محكومة بحاجات ماتني تزداد يوماً بعد يوم علي أن هذا الجديد من الحاجات لايخلق من اللفظ شيئاً من عدم، بل إن المعربين يكونون مسوقين إلي البحث عما لديهم من اللفظ فيعملون فيه النظر حتي يكون لهم الجديد في الأبنية التي عرفوها في العربية.

ولنا أن نقول إن المعجم التاريخي في ضبطه لأفراد هذه اللغة لايكون محكوماً بل ساعياً إلي

(١) نشرت في مجلة المعجمية في وقائع ندوة المعجم العربي التاريخي تونس من ١٤ إلي ١٧ ١٩٨٩.

البحث عن الصواب والخطأ، ذلك أن «الصوابية» في كثير من الألفاظ لاتخضع للاعتبار، إن النظر إلي التطور «الصحيح» يبعد عن الخوض في الخطأ.

أننا حين نبحث في سيرة اللفظة فنراها تكتسي لبوساً خاصاً في كل عصر اتساعا ومجازا وتشبيها، ونحن نقبل هذا اللبو،س، بل قل إننا محكوم علينا أن نقبله، نكون في ذلك غير محصورين في دائرة الضيق ونتجاوز بذلك الحدود إلي أبعد من عصر الاحتجاج.

مازالت العربية القديمة موضع درس، وأن الكثير من نوادرها يسترعي النظر، وقد بدأ لي أن طائفة من الكلم المجموع تقتضينا أن نعود اليها غير مكتفين بالذي شاع من أبنيتها.

إن مصادر العربية القديمة ولاسيما مطولات المعجمات قد توقفت في طائفة فسردت فيها أقوالاً لاتخلو من التضارب، وأن الدارس ليقف فيها علي حشد من الآراء والتأويلات، وكان لي أن وقفت وقفة طويلة علي طائفة من هذه المواد أبدؤها بمسيرة تاريخية لأشير في خاتمة المطاف إلي ما آلت إليه، وسأرتب هذه بحسب أوائلها دون النظر إلي أصولها الاشتقاقية، ودونك ـ صاحبي الدارس المعني ـ هذه المواد:

١ - سِجـال:

ان هذه الكلمة قديمة، ولكنها بقيت في العربية المعاصرة، والمعربون في أيامنا درجوا علي استعمالها مصدراً كأن أقرأ في «صحيفة الشرق الأوسط»[٢] في مناظرة في الثقافة والأدب، لماذا اختفي «السجال» من حياتنا الثقافية؟.

والذي يخلص من هذا أن السجال بمعني الجدال والمناظرة، وهذا هو الجاري لدي الكتاب في مقالاتهم وأبحاثهم، ومن هذا مايقول آخر: اشتدّ «السجال» بين الأطراف كافة، وهذا شئ فاش كثير.

أقول: و«السجال» بهذا الاستعمال وهذه الدلالة شيء جديد مستوحَي من معني السجال في الأصل.

«السجال»: جمع سَجْل بمعني الدلو الممتلئة ماءً، ولايكون سجل إلا وهو ممتليء ماءً قال لبيد:

يُحيلُون السجال علي السجال[٣].

وفي حديث أبي سفيان: أن هِرَقْل سأله عن الحرب بينه وبين النبي ـ صلي الله عليه

(٢) الشرق الأوسط في ١٩٨٩/٤/٢٦.
(٣) لسان العرب (سجل).

وسلم ـ فقال له: الحرب «سجّال» معناه: إنّا نُدَال عليه، ويُدَال علينا أخري[٤].

أقول: وقوله: «الحرب سجال» علي التشبيه، أي هي كالسجال يتناوب فيها المستقيان من البئر، وهي كما في الأصل جمع «سَجْل» وليس فيها شيء مما درج عليه المعاصرون الذين حولوا الكلمة في استعمالهم إلي «مصدر» وكأنه في استعمالهم مصدر لـ «ساجل» مثل: سابق ومصدره «سباق» و «مسابقة».

أقول أيضاً: أن الأقدمين ذهبوا في دلالة «السجال» وهي جمع إلي معني المبادلة والمعاقبة فأخذوا من السَّجْل وهو الاسم المساجلة ولم يحولوا السجال إلي مصدر نحو: السباقَ والمسابقة، والصراع والمصارعة، وغيرهما كثير جداً.

وأريد أن أقول أن مصدر «فاعل» هو المفاعلة والفعال وهذا لايعني أن كل فعل علي هذا يأتي منه هاتان الصيغتان فكثيراً ماكتفي في العربية بأحدهما وهجر الآخر علي قياسيته. ألا تري أنك تقول: «المباراة» من الفعل «بارَى» ولا تقول براء ولم يجر به الاستعمال. وتقول: مضاحكة ولاتقول ضِحَاك وتقول ملاعبة ولاتقول لِعَاب وتقول مكاثرة ومكابرة ولاتقول كِثَار ولا كبار.

ومن هنا كان علي المعاصرين أن يكتفوا بـ «مساجلة» لأن السجال بقيت في العربية جمعا، ولم ترد مصدراً وإن كانت قياسية كالمساجلة.

واستعمل الزملكاني صاحب «البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن»[٥] في كلامه علي الأحرف في فواتح السور كلمة التساجل، ولم يرد هذا المصدر في كتب اللغة، ولكن المؤلف جعله من قبيل التبادل والتناوب ونحوهما، وكان موفقاً فيه، قال:

«إنها كالمهيّجة لمن يسمعها، والموقظة للهمم الراقدة من البلغاء لطلب التساجل في الإعلام»..

أقول: فكيف نقول في «سجال» في استعمال المعاصرين الذين حولوها مصدرا؟

الجواب عن ذلك: ليس من ضير في هذا، وقد استوحى المعاصرون هذه الدلالة من المعني في الأصل وأنها شيء مثل المساجلة بل قل نظير المساجلة في القياس، وليس لي أن أهرع إلي القول بـ «الخطأ».

---

(٤) المصدر السابق.

(٥) من منشورات ديوان رئاسة الأوقاف في بغداد، سنة ١٩٧٤ وانظر ص٥٧.

أقول: إن المعاصرين حين درجوا علي استعمالهم هذا، لم يشعروا أنهم تجاوزوا الأصل، ولعل كثيرين منهم لم يعرفوا دلالة «السجال» في استعمال العرب الأقدمين، ولكنهم يستعملون الكلمة حين يبدؤها أحدهم فتشيع، أفلي أن أقول: إن الكلمة قد «تُرْزأ» بشيوعها؟ علي أن في العربية شيئاً من هذا التحول كما سنري.

٢- شتّـى:

استعملت «شتي» في قوله تعالي: ﴿إن سعيكم لشتّي﴾[٦]، والمعني: مختلف متعدد والكلمة خبر والخبر يفيد الوصف، وكأنّ «شتي» نعت أو صفة في المعني في حين وردت للمبتدأ اسم ذات في قوله تعالي ﴿وقلوبهم شتي﴾[٧].

والخبر «شتّي» في الآية تومىء إلي أنها، شتي جمع شتيت، كما سنري في المثل العربي القديم، الذي يشير إلي دلالتها علي الجمع «شتي يؤوب الحلَبة»[٨].

وكلمة «شتي» في الأصل جمع شتيت مثل جريح وجرحي ومريض ومرضي.

وقد فطن إلي هذا الدكتور مصطفي جواد[٩]، وأشار إلي أنها في الاستعمال قد ابتعدت عن بناء الجمع وتحولت إلي ما يشبه النعت أو الصفة.

أقول: والذي ذكرته أنا من استشهاد بالآية الكريمة لدليل كاف يؤيّد رأي الدكتور مصطفي جواد في تحول هذه الكلمة إلي معني الصفة أو النعت كما أن استشهادي بالمثل القديم يدل علي أصالة الجمع فيها.

٣- غُزّى:

جاءت هذه الكلمة في قوله تعالي: ﴿أو كانوا غُـزّي﴾[١٠]، في المصحف الكريم الذي بين أيدينا، وقرِئت «غُزاة» بضم الغين وفتحها كما قُرِئتْ «غِزيّ» بكسر الغين وتشديد الياء،

---

(٦) ٤ سورة الليل.

(٧) ١٤ سورة الحشر.

(٨) مثَل يضرب في اختلاف الناس وتفرقهم في الأخلاق. انظر: مجمع الأمثال ٣٥٨/١ (ط. دار الفكر) ـ بيروت.

«شتي» بمعني متفرقين، وهي في موضع الحال، أي يؤوب الحلبة متفرقين.

(٩) محاضرات الدكتور مصطفي جواد لطلبة دار المعلمين العالية ببغداد سنة ١٩٤٣م.

(١٠) ١٥٦ سورة آل عمران.

وكلها بمعني الجمع، والمفرد «غَازٍ»[11]، وكذلك (غَزِي) مثل (نَدِي) و (نَجِي) وهما جمع (ناد وناج). والذي دل عليه الاستقراء أن بناء «فُعَّل» من أبنية الجمع يكون جمعا لـ «فاعل» صحيح اللام لامعتلها نحو: ساجد وراكع، وجمعهما «سُجَّد» و «رُكَّع» ومن هنا كان «غُزَّى» في لغة التنزيل العزيز من الجمع القليل.

ومجيء غزى في الآية يقدم فائدة تاريخية نخلص منها إلي أن اللغويين حين عرضوا لأصول اللغة لم يفيدوا الفائدة القصوي من لغة التنزيل.

٤- فَوْضَى:

وهذه كلمة أخري وُفِّقَ إلي معرفتها الدكتور مصطفي جواد ـ رحمه الله ـ حين لمح الجمع في دلالتها وقال: هي «فَضِّي» في الأصل ثم عرض لها الإبدال بعد فك الإدغام فصارت «فوضي» وقال: إن المفرد منها فضيض مثل شتيت التي جمعت شتي وقد سبق الكلام عليه.

أقول: لم يكن شيء من هذا لدي اللغويين الأقدمين كما نستفيده من المعجمات ذلك

---

(١١) لم يرد فاعل علي «فُعَّل» في الناقص إلا هذا الجمع، والكثير فيه بناء «فُعَلَة» نحو: حَامٍ وجمعه «حماة» وداعٍ وجمعه «دعاة»، وهذا كثير فاش. غير أن في العربية نوادر تبتعد عن الكثير المسموع، ومن هذا ورد «جُمَّل» بمعني الجبال الغليظة جمع «جمل».

ولنا أن نستشهد بقوله تعالي: ﴿حتي يلج الجمل في سمّ الخياط﴾. ٤٠ سورة الأعراف، وقد جاء في «الجمل» في هذه الآية كلام كثير، فقد قرأ ابن عباس «الجُمَّل» بمعني الجبال المجموعة.

وروعي عن أبي طالب أنه قال: رواه الفراء، قال: ونحن نظن أنه أراد التخفيف.

قال أبو طالب: وهذا لأن الأسماء إنما تأتي علي «فَعَل» مخفف والجماعة تجيء علي «فُعِل» مثل صوم وقوم. قال أبو الهيثم: قرأ أبو عمرو والحسن، وهي قراءة ابن مسعود ﴿حتي يلج الجمل﴾ مثل «النُّغر».

وحكي عن ابن عباس: الجُمَّل» بالتثقيل والتخيف، فأما «الجُمَل» بالتخفيف فهو الحبل الغليظ وكذلك «الجِمَّل» مشدد. قال ابن جني: هو «الجمل» علي مثال «نغر» والجمل علي مثال «قفل»، والجمل علي مثال «طنب» و«الجمل» علي مثال «مثل».

قال ابن بري: وعليه فسر قوله تعالي: ﴿حتي يلج الجمل في سم الخياط﴾، فأما «الجُمْل» فجمع «جمل» كأسد جمع «أسد» ولنرجع إلي «غُزَّى» فنجد الأزهري يقول: «الغُزِّي» علي بناء الركّع و«السُّجد» واستشهد بالآية وجاء في جمع «غازٍ» «الغُزَّاء» بالمد مثل فاسق وفسّاق (انظر لسان العرب «غزو»).

ومن المفيد أن أشير إلي ما ورد في إنجيل متي مما يتصل بـ «الجُمَل»، وقد ذهب الشراح إلي أن المراد هوالحيوان المعروف ثم عرض نفر من الشراح فصححوا شرحهم وذهبوا إلي أن المراد بـ «الجمل» هو الحبل الغليظ.

أنهم ذكروا: فَوْضَي وفَيْضَي و«فيضوضا» ولم يلمحوا أن أصلها فَضَّي علي نحو ماذهب إليه الدكتور مصطفي جواد.

أقول: إن فوضي قد حولت في استعمالهم إلي نوع من المصدر، وكأنها صارت تفيد ما يفيده «الاضطراب» وعدم النظام وهذا في استعمال الأقدمين أيضا، غير أننا نجد في شعر الافوه الازدي قوله:

لا يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَي لا سَرَاةَ لَهُمْ
وَلا سَرَاةَ إذَا جُهَّالهم سَادُوا(١٢)

وكلمة فوضي تفيد الوصف ومعناها مختلطون ومن هنا يصح لي أن ألمح صواب ما ذهب إليه الدكتور مصطفي جواد(١٣).

٥- مشاكل:

أقول: هي كلمة شاعت في العربية المعاصرة جمعاً لـ «مشكلة» وهي في الاستعمال القديم جمع سالم مؤنث «مشكلات».

وقد كثر استعمال مشكلة في العربية المعاصرة، وكذلك جمعها، لقد اختار المترجمون النقلة في المشرق العربي كلمة مشكلة مؤنثة للكلمة الانقليزية Problem فشاعت وكتب لها السيرورة، ولو أنهم اختاروا كلمة أخرى بمعناها نحو معضلة مثلاً لشاعت أيضاً، في حين وجد المترجمون النقلة في المغرب العربي أن هذه الكلمة في الفرنسية مذكرة فاختاروا لها «المشكل».

ولن تجد التونسي إلا قائلاً المشكل في هذا الأمر هو كذا وكذا كما لن تجد المشارقة إلا قائلين «المشكلة الكبري» ثم أعود إلي جمعها فأقول إن «مشكلة» هي بناء اسم الفاعل من

---

(١٢) انظر لسان العرب «فوضي» وجاء فيه بما يُشْعِر الصفة وليست جمعاً قول الشاعر:
طعامهم فَوْضي فضا رحالهم ولا يحسبون السوء إلا تنادِيا
وهم فوضي أي مختلطون لا أمير لهم يجميهم.
ويقال أيضاً، فيضي، وفيضيضا، وفوضوضا، ويمدّ جميعه.

(١٣) أقول: رجعت إلي مادة «فضض» لأتبين معناها في الأصل وأعرف الصلة بينه وبين ما آلت إليه بعد الإبدال. لقد عرفت أن «الفضّ» هو الكسر، وأن الدلالات للكلمة كلها لاتبعد عن الكسر حقيقة ومجازا، و«الفضيض» هو المكسور. وإذا كانت «فوضي» تعني «المختلطين» فكأنهم أجزاء متفرقة اختلطت علي غير نظام.

الرباعي نحو «معضلة» وجمعها معضلات ولانقول معاضل كما نقول مشاكل ولكننا نقف علي قوله تعالي: ﴿وحرمنا عليه المراضع﴾[١٤].

واسم الفاعل هذا لا يأتي منه «مفَاعل» في الجمع إلا نوادر قليلة و«المراضع» جمع «مُرْضِعَة» لا «مرْضَع» ومن هنا يكون لنا أن نحكم بصحة مشاكل ولي أن أقول في هذا الجمع ماقيل في جمع مصيبة فقد جمعت علي مصائب وهو الكثير ولكنه علي غير قياس وجمعت علي «مصاوب» واسم الفاعل لايجمع علي مفاعل إلا أنهم توهموا أن المفرد مصيبة علي وزن فعيلة لا «مُفعلة»[١٥].

وكأن هذا الذي عبروا عنه بـ «التوهم»[١٦] صوغ هذا الخروج عن القياس.

---

(١٤) ١٢ سورة القصص.

(١٥) انظر لسان العرب مادة (صوب). ثم أن الجمع «مصائب» بالهمز، فضلاً عن خروجه عن القياس كما قالوا، فيه خروج آخر عن القاعدة الصرفية التي تقضي بعدم قلب الواو والياء همزة عند الجمع كما نقول في جمع «مشيخة» «مشايخ» بالياء، وفي جمع مصيدة «مصايد»، ولكن المعاصرين استبدلوا بالياء همزة ظناً منهم أنه هو الفصيح فقالوا: «مشائخ» و «مصائد». وعلي هذا خطأ البصريون «معائش» في قراءة نافع المدني، وذهب أهل القراءات إلي أنها قراءة موثقة صحيحة، والقراءة العالية حجة، ونافع من أهل الثقة في هذا الفن.

(١٦) جاء في العربية «المسيل» أي السِيلان، وهذا يعني أن الأصِل هو مادة «س ي ل» غير أن جمع «مسيل» جاء علي «أمسلة» و «مسُل» و «مسلان» و «مسائل»، وكله توهم أصالة «الميم» في «مسيل» أي أنه علي بناء «فعيل».

والذي ألاحظه أن الجمع الأخير «مسائل» بالهمزة، والقاعدة الصرفية تقضي أن يكون بالياء «مسايل» لأصالة الياء في «س ي ل». وكأن الاستعمال قد خرج علي القاعدة الصرفية، أو أن أصحاب المعجمات واللغويين قد أغفلوا القاعدة الصرفية، نظير ما جاءت في «مصائب»، ونظير الشائع الكثير علي التوهم أو الخطأ في «مصائد» و«مشائخ».

ومثل هذا جمع «مكان» علي «أمكنة» بتوهم أصالة الميم من «كان» وكأنها وزان «متاع» وجمعها «أمتعه». ولابد أن يكون أصل «مكان» من مادة ك و ن. إن مادة «ك ن ن» كما في «كن» و«كنان» كلها تدل علي الظرفيّة المكانية، وكذلك «و كِ ن» أقول: ولكثرة استعمال «مكان»، واقترَانه بـ «زمان» جعلت الميم أصلاً علي التوهم فجمع هذا الجمع وأصله «الكون» أو «الكينونة». وكأن هذا المصدر الآخر يومىء إلي أن «الكون» الأجوف جاء من الثلاثي المضاعف «ك ن ن»، كما أن «الغيبة» و «الغياب» من «الغبَ» ويستدل علي هذا من «الغيبوبة». وقد نلمح المضاعف يتحول إلي الناقص كما في «غض» الذي تحول إلي «أغضي» ومثله بوجه خاص تحول «مطّ» إلي مطِي» مع بقاء التشديد و «مطل» الفتح في الطاء من «مط» كما ورد في قوله تعالي: ﴿ثم ذهب إلي أهله يتمطّي﴾ «٣٣ سورة القيامة». والاستقراء الكثير في الأفعال يدل علي نظائر هذا الأخير ومنه: «ذَر الذل يتحول إلي ذري».

وأعود إلي «كون» و «ك ن ن» فأجد أن الدلالة واحدة تجمع بين الإثنين، فكلاهما يشير إلي «الوجود». ولعل من هذا أيضاً «الضُر» و «الضرر» من المضاعف و«الضير» من باب الأجوف. وأنا أجتهد فأقول: انّ المضاعف هو الأصيل، ذلك أنه الخطوة الأولي في تحول الثنائي «ضر» إلي ثلاثي وهو ضرر، والاستقراء يشير إلي كثير من هذا.

٦- مصائـر:

أقول: في تاريخ هذه الكلمة المجموعة أنها جمعت وشاعت في هذه الصيغة في العربية المعاصرة ذلك أنها وردت مفردة عدة مرات في لغة التنزيل[١٧] وأن ورودها مفردة في لغة التنزيل يشير إلي أن الكلمة وهي مفردة، تؤدي ما يراد منها، فليس ثمة حاجة إلي أن تجمع.

وقد نسأل: لم كان هذا الجمع؟ والجواب عن هذا أن العربية المعاصرة جمعت الكلمة تأثراً باللغات الغربية التي ترد فيها هذه الكلمة مجموعة، كأن يقال فيها «مصائر الأمم» أو «مصائر» الشعوب التي مازالت تحت نير الاستعمار ومثل هذا.

والكلمة الانقليزية Destiny والكلمة الفرنسية Destin أو الكلمة الأخري Sort يأتي كله مجموعاً في هاتين اللغتين:

ولما كنا ننقل عن هاتين اللغتين اضطراراً وحاجة فلابد أن ننتهي إلي هذا الذي حصل من جمع هذه الكلمات، أقول أيضاً: إن المعربين في عصرنا يجهلون دقائق العربية وهم يحسبون مصائر بالهمز فصيحة، ولو قال أحدهم «مصاير» لحسبوا أنّه متأثّر بالإعراب الدارج العاميّ ولم يعلموا أن «مصاير» بالياء هي الفصيحة وأن الياء فيها لاتبدل همزة، وهي نظير مصايد ومشايخ وليس لنا أن نهمز هذه الألفاظ لأن الياء فيها أصل.

إن الياء في مصاير ليست كالياء في حديقة التي تبدل همزة في الجمع فنقول: حدائق لأنها زائدة وليست أصلية والفعل «حدق».

ثم إن المعاصرين قد جمعوا «مصير» علي «مصائر» جمع توهم، فكأن الميم أصل في الكلمة، وهي بـذلك وزان «فعـيل» كما قيل فـي «سريـر» «سرائـر» وهـو غيـر «سـرر» و«أسرّة».

وقد مرّ شيءٌ من هذا في تعليقنا علي «مصيبة» و «مصائب»، ومصير اسم مفعول لايمكن أن يجمع علي مصاير لولا فذلكة التوهم.

---

(١٧) وردت كلمة «مصير» في لغة التنزيل ٢٨ مرة اجتزيء منها بما أثبته: قوله تعالي ﴿وبئس المصير﴾ ١٢٦ البقرة، وقوله تعالي: ﴿وإلي الله المصير﴾ ٤٢ سورة النور، وقوله تعالي ﴿وساءت مصيرا﴾ ٩٧ سورة النساء. وقوله تعالي: ﴿قل تمتعوا فإنّ مصيركم إلي النار﴾ ٣٠ سورة ابراهيم. أقول: «إن المصير في هذه الآيات يعني النهاية والعاقبة، وهو هنا مصدر ميمي بمعني الصيرورة أو الصير. وقد يكون في هذه الدلالة الأصلية أساس لكلمة «المصائر» في اللغة المعاصرة، هذه الكلمة التي تجاوزت في جمعها معني النهاية أو العاقبة إلي شيء آخر يتصل بما سيؤول إليه الأمر من أحداث.

٧- مصاعب:

«المصاعب» جمع «مُصْعَبْ»، وهو الفحل الذي يودع من الركوب والعمل للفحلة.

قال أبو ذؤيب:

كأنّ مصاعيب زُبٌّ الرؤو س في دَارِ صَرْمٍ تَـلاقَي مُريحا

قالوا أراد «مصاعب» فزاد الياء لتأتي له «فعولن».

أقول: وجدت هذا دليلاً علي أن حذف الياء هو الفصيح وليس العكس.

وقد فات الدكتور مصطفي جواد هذا في ذهابه إلي أن جمع معجم هو معاجيم كأنه حملها علي المسانيد جمع مُسنَد والمراسيل جمع مرسل من مصطلحات الحديث الشريف.